قضية الهوية
بين الهيمنة الثقافية وأخلاقيات الترجمة

د.ليلى فاسي

معهد الترجمة / جامعة الجزائر 2

Abstact

The paper deals with cultural dominance and identity issue in translation theory. It focuses on how western colonial and obsessive tendency lasted even after the independence of almost all colonized nations. It shows how translation theory set up to reinforce such tendency. Therefore the paper stresses on the role of translation in maintaining and protecting identity and cultural diversity. It is an attempt to show how translation, again, could be a means of domination and diversity elimination to exercise absolute control upon the others. We aim to demonstrate the link between post-colonial translation and orientalism, which had drawn a distorted image of the former colonies trying to promote false ideas. Light will be also shed on some of translation theories that rejected the uniformity of culture by introducing new strategies and new techniques that maintain the difference considering any modification of the source culture as a distortion.

تقوم الترجمة بصفة عامة بكل تخصصاتها بنقل الموروث الحضاري للأمم عبر مختلف الفترات الزمنية ولطالما كانت القناة التي تواصلت من خلالها مختلف الأجناس، ولم يفتر النشاط في مجال البحث في الترجمة حتى أصبحت علما تؤسس له نظريات اختلفت توجهات أصحابها باختلاف خلفياتهم. وبما أن الترجمة

هي النشاط العلمي الأكثر تعاملا مع التعددية والاختلاف نجدها في الوقت ذاته المجال الأكثر استغلالا لطمس الاختلاف ومحو الآخر.**إذن كيف تكون الترجمة أداة للسيطرة وقوة مناهضة للتجنيس وطمس هوية الآخر في ذات الوقت؟** سنحاول من خلال هذه المداخلة أن نبين كيف تم استغلال الترجمة كوسيلة هيمنة لا تعترف بالآخر ولا بهويته وذلك من خلال عرض مبسط لمفهوم الترجمة والإمبراطورية، ثم نحاول أن نبين كيف تكون الترجمة أداة لطمس الهوية والاختلاف، ونختم مداخلتنا بالحديث عن دور الترجمة في حفظ الهوية والتعدد الثقافي من خلال التوجه الحرفي في الترجمة والمناهض للتمركز العرقي في الترجمة.

مفهوم الترجمة والإمبراطورية:

يعود هذا الربط بين الترجمة والإمبراطورية في حقل الدراسات الترجمية والأدبية إلى أواسط الثمانينات من القرن العشرين، وهي الفترة نفسها التي اتسمت فيها الدراسات الترجمية بالثبات والتأني لتصبح دراسة الترجمة في التسعينات من القرن الماضي ميدانا مستقلا قائما بذاته.(دوغلاس روبنسون 2005) في هذه الفترة ازداد الوعي بالعلاقات غير المتساوية بين اللغات وبفوقية بعضها على بعض فقط لأنها كانت لغات الإمبراطورية الاستعمارية وقد اهتم مجال الدراسات ما بعد الكولونيالية بدراسة هذه العلاقات المتفاوتة. والترجمة في واقع الأمر لم تكن فعلا بريئا مكرسا للاختلاف يهدف إلى تيسير عملية التواصل في كل الحالات، وإنما هي وسيلة لم يكن للمستعمر غنا عنها أثناء عملية الاحتلال ونشر سياسة المجال الحيوي. ولأن الأمر لم يقتصر يوما على عمليات الاجتياح فقط، كان على المستعمر حتى يرسي قواعد إمبراطوريته أن يجد ويطور وسائل فعالة للتواصل مع الأهالي بغرض إخضاعهم وتشويه هويتهم. ومثال ذلك قمع السلطات الاستعمارية الفرنسية للغة (وولوف) في السنغال لتحل محلها اللغة الفرنسية وقد كانت البداية بتكوين نخبة صغيرة في اللغة الفرنسية من أجل تكميل مهام السلطات الدينية والاستعمارية وتيسير التواصل مع الأهالي وأول مدرسة أنشأت في السنغال كانت في سانت لويس، وقد بدأت في تعليم اللغة الفرنسية عن طريق الترجمة وذلك بمساعدة الأهالي على التعبير عن أفكارهم كتابيا بلغتهم المحلية ثم ترجمة ما كتبوه إلى اللغة الفرنسية. لكن سرعان ما تغيرت هذه الاستراتيجية كونها ضمنت تعليما مزدوج اللغة أي لغة وولوف المحلية إلى جانب اللغة الفرنسية الأمر الذي أدى إلى إقصاء اللغة المحلية كليا من المدرسة فتراجعت اللغة المحلية واقتصر استعمالها مع العائلة فقط.

(Pioche Jacqueline et MarchelloNizia Christiane ;1998)

أما في الجزائر والتي عرفت نفس المصير فقد شهدت إصدار السلطات الاستعمارية أمرا في 07-09-1830 يقضي بوضع اليد على الأوقاف الإسلامية التي اعتمد عليها التعليم في الجزائر آنذاك اعتمادا كليا واستعمل دخل تلك الأوقاف لأغراض غير تعليمية مما أدى إلى تراجع اللغة العربية في التعليم والاستعمال وأصبحت علامة من علامات الفقر والانتماء للطبقة الكادحة التي لم تتح لها فرصة التعليم باللغة الفرنسية. علاوة على ذلك، كان المترجمون الفرنسيون يحملون رتبا عسكرية وكانوا يعملون مع الإدارة الاستعمارية بهدف الترويج لأفكار تخدم الفكر

الاستعماري وتضمن ديمومته. وكانت ردة الفعل على مثل هذه الممارسات وأخرى ان تشكلت جمعية العلماء المسلمين لتحارب هكذا معتقدات وتحافظ على الهوية الجزائرية وعلى لغة البلاد وثقافتها بكل خصوصياتها (تركي رابح، 1969). ولو تأملنا في حاضرنا اليوم لرأينا مدى تأثر تلك المستعمرات بالقوى الحديثة والتي هي في واقع الأمر امتداد للقوى الاستعمارية التقليدية والتي تحاول متوسلة كل السبل محو الاختلاف والتعددية الثقافية من خلال السياسة والاقتصاد والإعلام، وذلك بفرض فكر يخدم مصالحها ويضمن تبعية الآخر ثقافيا واقتصاديا. وإن نظرنا في الوسائل المستعملة من أجل ذلك لوجدنا الشركات المتعددة الجنسيات مثلا واحدة منها. استعملت تلك الشركات اللغة الإنجليزية في معاملاتها مع كل فروعها في مختلف مناطق العالم مما حفز على استخدام المترجمين إلى اللغة الإنجليزية كمرحلة أولى، ولما كانت عملية الترجمة مكلفة بالنسبة للمتعاملين ومع زيادة الضغط الذي تفرضه اللغة الإنكليزية كونها لغة التقنية تحولت الشركات على اختلاف جنسياتها الفرنسية والألمانية واليابانية إلى استعمال اللغة الإنجليزية في كل معاملاتها كونها أكثر عملية. وبالتالي التخلي تدريجيا عن استعمال اللغات المحلية أين تنشط فروع الشركات المتعددة الجنسيات ثم سرعان ما يتغير الفكر وطريقة العيش ومعالم الهوية المحلية بتغير اللغة وهو الأمر الذي تصبو له الإمبراطورية. (Charles Durand,1999)

يشكل الآخر المختلف بثقافته ودينه وهويته تهديدا للإمبراطورية لأن اختلافه سيخلق فيه الرغبة في أن يكون له وجود مستقل سيرفض حتما أن يكون امتدادا لشيء آخر لا يشبهه. خدمت الترجمة والمترجمون أغراض الإمبراطورية الاستعمارية فاعتبرها بعض المنظرين على غرار تيجاسويننيرانجانا أنها في حقيقتها هي فعل استحواذي تملكي واعتبرها إريك شايفيتز فعلا عدوانيا وذلك لاختلاف النسق الأدبي والثقافي لكل لغة ومحاولة توطين المختلف مع إعطاءه الدرجة الثانية كان من مهام الترجمة وتلك هي المؤامرة التي قامت عليها الإمبراطورية ودامت ويقول تيجاسويننيرنجانا في هذا السياق:

“ Translation is a collusive activity that participates in the fixing of colonized cultures into a mould fashioned by the superior power (Bassnett and Gentzler 2007:20)

أي أن الترجمة هي بمثابة المؤامرة التي تسعى من خلالها القوى الكبرى لحصر الثقافات المستعمرة في قوالب هي من تحدد أشكالها وأبعادها. وإن تأملنا أكثر في هذا القول لعلمنا مدى خطورة وعي المضطهد بالاختلاف والتنوع على استمرارية الإمبراطورية لهذا تغيرت أشكال الاستعمار من الاجتياح العسكري المباشر إلى الاجتياح الفكري الثقافي غير المباشر مع تعدد الوسائل وطول المدى والغرض من وراء ذلك رغبة مجنونة في دوام العظمة والسيطرة. وكردة فعل على هذا الاعتداء ظهرت مجموعة من الكتاب رغبت في التصدي لهذا الاجتياح على غرار الكاتب الكيني نقوقي واتينغوا والذي شهد قمع وهيمنة اللغة الإنجليزية للغة المحلية في كينيا لغة جيكيوو وقد تعمد استعمال مفردات افريقية غريبة في كتاباته لإرباك القارئ الإنجليزي. ونفس الشيء استعمله الكاتب الهندي راجا راو وكتاب هنود آخرون استعملوا اللغة الإنجليزية في كتاباتهم بنكهة محلية هندية تجعل النص يبدو وكأنه مترجم وذلك من أجل جعل فعل القراءة أكثر صعوبة وبعث القارئ الإنجليزي على البحث في مظاهر الاختلاف مما سيزيد من وعيه بوجود الآخر. (David Crystal, 2001)

الترجمة كأداة لطمس الهوية والاختلاف: خلال محاضرة ألقاها عالم اللاهوت الألماني فريدريك شلايرماخر في سنة 1827 تحددت استراتيجيتان قامت عليهما مختلف نظريات الترجمة في العصر الحديث وتمثلت هاتين الاستراتيجيتين في التجنيس والتغريب أما الإستراتيجية الأولى تمثلت في نقل النص إلى القارئ مما يستلزم التعديل حتى يسهل الفهم وتتحقق المقبولية وهذا هو التجنيس. والثانية هي نقل القارئ إلى النص مما يستلزم ممارسة فعل القراءة بكل تفاصيله حتى نتعرف على الآخر وتكون الترجمة من خلال ذلك مجالا لاستقبال الآخر وهذا هو التغريب. (George Steiner, 1975)

ولعل أشهر النظريات التي قامت على استراتيجية التجنيس حسب رأينا هي نظرية التعادل الديناميكي للأمريكي أوجين نايدا الذي بنفوره من مبدأ الترجمة الحرفية، تبني مبدأ مختلف وهو التعادل بين اللغات أو التعادل الديناميكي والذي يضمن للمترجم نوعا من الحركية والحرية في الترجمة وعن التعادل الديناميكي قال:

"Dynamic equivalence is therefore to be defined in terms of the degree to which the receptors of the message in the receptor language respond to it in substantially the same manner as the receptors in the source language. This response can never be identical, for the cultural and historical settings are too different;

but there should be a high degree of equivalence response, or translation will have failed to accomplish its purpose". (Nida1969:116)

يقوم التعادل الديناميكي على أساس التعادل في التأثير أي أن تكون استجابة المتلقي الثاني نفسها نسبيا كما في الرسالة الأصلية ولدى المتلقي الأصلي. لا يمكن لهذه الاستجابة أن تكون نفسها بسبب الفوارق التاريخية والثقافية ومع ذلك وجب خلق تعادل في الاستجابة وبدرجة عالية وإلا فستكون الترجمة قد أخفقت في أداء مهمتها. ترجمتنا.

وبناءا على هذا، يظهر التعادل عند نايدا على مستوى الوظيفة لا على مستوى الشكل.

- لا يظهر المعنى الحرفي في الترجمة وإنما التعادل الديناميكي.
- لا يظهر ما تقوم اللغة بتوصيله بل تبرز الكيفية التي يتحقق بها الاتصال.

- ينبغي أن ينتج النص المترجم استجابة في الثقافة الحاضرة شبيهة بالاستجابة لدى المستقبلين الأصليين وإلا علينا أن نقوم بتغييرات في النص بهدف الوصول إلى الاستجابة الأولى هي التعادل بين النصين على مستوى المعنى والتأثير. (غنسلر تر عبد العزيز مصلوح، 2007).

وبهذا يكون اوجين نايدا قد عمل على تكييف النص الأصلي وتعديله ليخدم ثقافة المتلقي والتكييف يتم من خلال تغيير كل ما لا يتناسب مع ثقافة وفكر المتلقي للترجمة أي تجاوز اختلاف السياقات الثقافية والرؤى، وبالتالي تعديل الأفكار حتى تتناسب مع ثقافة المتلقي وقدرته على الفهم بحيث لن يتعرض فعل القراءة وعملية الفهم إلى أي عائق.وبهذا لن يشعر القارئ بوجود الآخر ولا باختلاف هويته مما سيعزز من نرجسيته ومن محدودية نظرته للآخر لأنه وبكل بساطة سيراه امتدادا له واي رغبة في إثبات الوجود ستشعره بالارتباك مما سيولد نوعا من الرفض سرعان ما يتحول إلى نوع من العنف والعدوانية ضد الآخر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعديل حسب أنطوان برمان لم يطل اللغات والثقافات الأنجلو سكسونية وإنما كل التعديل مورس لصالح الثقافة المهيمنة حتى تستمر وتضمن ديمومتها. ويرى لورنس فينوتي أن أعمال نايدا في مجال الترجمة تحمل بعدا استعماري إمبريالي وهي شكل من أشكال العنف العرقي الرامي إلى الإخضاع والهيمنة.

ونذكر إلى جانب نظرية التعادل الديناميكي، التيار الوظيفي والتيار ما بعد البنوي اللذان عكسا كل المفاهيم اللسانية والبنوية التي حصرت النشاط الترجمي في تغيير الشفرات من لغة إلى لغة أخرى ليتوجه الاهتمام لدراسة المترجم كوسيط في العملية ودراسة ذاتية وايديولوجيته وكيف تؤثران على عملية النقل. علاوة على ذلك نذكر النظرية الغائية التي تلزم المترجم بأن ينتج نصا طبيعيا وسلسا ومحبوكا وهي نقطة التقاء مع نايدا أي أن الترجمة هي فعل يقوم على هدف اتصالي معين لن يتحقق إلا بإنجاز نفس الهدف المنشود في اللغة المنقول منها وبالتالي كل الوسائل متاحة من خلال نظرية سكوبوس لتحقيق الهدف وراء انتاج النص والترجمة. (ن،م)

الترجمة كقوة مناهضة للتمركز العرقي: رغم ما تميزت به الإمبراطورية من الرغبة في التملك والاستحواذ إلا أنها لم تتمكن من تشويه الجانب الأخلاقي للترجمة والدليل على ذلك ظهور دراسات في الترجمة تنادي بالمحافظة على غربة العمل أثناء ترجمته تعزيزا للإثراء والإنفتاح الثقافي على الآخر. إنه التيار الحرفي في الترجمة والذي يرفض التعديل بكل أشكاله ومحو الأثر الأجنبي لأن الترجمة حسب أنطوان برمان هي: "طاقة ومنبع للخلق والإبداع وعليه يمكنها أن تكون مكانا لاستقبال الغريب أي لغة الآخر الأجنبي وثقافته. كما تعتبر انفتاح وإنصات وتحاور وتفاعل مع الآخر." (الخطابي، 2010) أي أن الترجمة هي فضاء لاستقبال الغريب واحتوائه وبهذا رفض برمان مبدأ التمركز العرقي الذي يكرس الانغلاق والارتقاء وعدم الاختلاط والتفاعل مع الغير لأن التخلص من هذه النزعة الارتقائية التي تجعل من لغة وثقافة ما مكتفية بذاتها وبالتالي تهيمن وتسيطر على لغات وثقافات أخرى وترغب في تملّكها، يجعل الترجمة تحتل مكانة غير واضحة المعالم، فهي من جهة تخضع لهذا الواقع الذي يسعى إلى اختزال التنوع الثقافي في ثقافة واحدة ذات نزعة عرقية وتكون طرفاً فيه ممّا ينتج عنه ترجمات مركزية عرقية أو ما يعرف بالترجمات السيّئة. هذا من جهة لكن من جهة أخرى نجد الهدف الأسمى للترجمة وهو الهدف الأخلاقي والذي يقف في مواجهة هذا الواقع الاختزالي لأن جوهر الترجمة هو الانفتاح والحوار والتواصل حتّى تبلغ الترجمة مقاصدها. وإلى جانب برمان نجد لورنس فينوتي الذي عاد إلى المبادئ التي وضعها شلايرماخر فيما يخص التوطين والتغريب. والتوطين حسبه هو "اختزال للنّص الأجنبي لصالح القيم الثقافية الأنجلو-أمريكية التي حملها النّص وذلك بدافع العرقية ممّا ينتج عنه أسلوب ترجمة شفاف وانسيابي ولا مرئي وذلك للتقليل من غربة النّص."أما التّغريب فهو ترجمة لا تتميّز بالانسيابية اللّغوية أو أسلوب

ترجمة غريب استعمل من أجل إظهار حضور المترجم وذلك بتسليط الضوء على الهويّة الأجنبية للغة المصدر وحمايتها من الهيمنة الأيديولوجية للثقافة المستهدفة".ويرى فينوتي في هذا التوجّه إستراتيجية معيّنة للترجمة تتمثّل في دفع القارئ للانفتاح على الأجنبي ونبذ النزعة العرقية في الترجمة. وبالتالي التقليل من ذلك العنف إن صحّ التعبير الذي يمارسه المترجم بغية تكييف القيم الثقافية الأنجلو سكسونية. وللإشارة فإنّ فينوتي في دراسته للأدب يناهض النرجسيّة الحضارية الأنجلو سكسونية وعدم الاهتمام بالأجنبي والانصراف عن النّظر في الاختلافات اللّغوية والثقافية الناتج عن هيمنة البلاد الأنجلو سكسونية على البلدان الأجنبية، هيمنة فاقت السياسة والاقتصاد لتصل للهيمنة الثقافية. إنّ قوّة هذه البلاد جعلت الترجمة تحتلّ مكاناً هامشياً وذلك أنّ اللّغة الإنجليزية لا تزال اللّغة التي يترجم منها أكثر من غيرها من اللّغات في العالم وهي واحدة من أقل اللّغات التي يُترجم إليها. وهذا ما يؤكد الهيمنة الثقافية للغة الإنجليزية. فالمترجم لهذه اللّغة في تكييفه لثقافة اللّغة المنقول منها يُساهم في تقليل فُرص مُتكلّمي اللّغة الإنجليزية بالوعي بوجود اختلافات لغوية وثقافية ويزيد من حدّة النّرجسية الحضارية وتكريس النّزعة العرقية في الترجمة ممّا سيؤدي كما سبق وذكرناه إلى اختفاء المترجم كمؤلف وعدم اعتبار الترجمة شكلاً مستقلاً من أشكال الأدب.

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره أعلاه يمكن أن نقول أن رسم حدود بين الثقافات واللغات أمر شبه مستحيل في ظل الهيمنة الثقافية وعولمة الثقافة، لكن لو حاولنا ان ننبذ مبدأ هرمية القوة وكرسنا مبدأ التعددية والاختلاف من خلال تعزيز الخصوصيات الثقافية وبلورتها في واقع يحترم الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر ستزدهر كل الثقافات بلغاتها وسيقتنع الجميع أن الترجمة هي في الأصل ظاهرة تقتضي حتمية وجود ثقافتين ولغتين مختلفتين حتى تتم بطريقة طبيعية ودون أي شكل من أشكال العنف على الآخر.

قائمة المراجع:

- -الخطابي عز الدين(2010): "الترجمة والحرف أو مقام البعيد"، مركز دراسات الوحدة العربية.
- -تركي رابح(1969):"الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- -غنسلر إدوين ترجمة عبد العزيز مصلوح (2007): "في نظرية الترجمة، اتجاهات معاصرة"، مركز دراسات الوحدة العربية.
- -نيومارك بيتر ترجمة حسن غزالة(2006): "الجامع في الترجمة"، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.
- -روبنسون دوغلاس ترجمة ثائر ديب (2005): "الترجمة والإمبراطورية"، المجلس الأعلى للثقافة.
- -Bassnett- Mc Guire Susan and Gentzler Edwin(2007) : *A Companion To Translation Studies*; *Topics in Translation*; PitorKuhiwczak and Karin Littau.
- Berman Antoine(1984) : *L'épreuve de l'étranger culture et traduction dans l'Allemagne Romantique*, Gallimard.
- Durant Charles(1999) : *La Langue Française* ; *Atout ou Obstacle* : Presses Universitaires Mirail.
- Crystal David(2001) : *Language Death*
- -Hornby Mary Snell (2006) : *The Turns of Translation Studies New Paradigms or Shifting Viewpoints*? Benjamin's Translation Library.
- -Pioche, Jacqueline et Marchello Nizia Christiane (1998) : *Histoire de la Langue Française*, Université 5ème édition, Mars 1998.
- -Nida Eugene (1965): *Towards a Science of Translating*, Brill N. V Leiden The Netherlands
- -Steiner George(1975): *Après Babel*, traduit par Lucienne Lotringer; Albin Michel.